سُورَةُ مُحَمَّدٍ

النزول: مكية.

المقاصد:

١ ـ تثبيت النبي ﷺ والمؤمنين في مواجهة الكفرة والمنافقين.

٢ ـ إعداد المؤمنين وتربيتهم؛ ليكونوا مُؤَهَّلين لمواجهة هذه التحديات الصعبة.

٣ ـ التهديد والوعيد للكفار والمنافقين؛ لتَرْويعِهم وتذكيرهم.

۞ ۞ ۞

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا
نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ
ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا
ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ
أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾

التفسير:

١ ـ ٣ ـ يَذُمُّ الله تعالى الكفَّار الذين صَدُّوا أنفسهم والناس عن دينه، ويُحَذِّرهم من بطلان أعمالهم، ويمدح المؤمنين الذين عملوا بما أمر الله، وصَدَّقوا بالقرآن الذي أُنزل على محمَّد ﷺ، وهو الحقُّ الثابت، وهو كلام ربِّهم، ويُبَشِّرهم بفلاح سعيهم إذ كفَّر عنهم ذنوبهم، وأصلح شأنهم وحالهم. ذلك الجزاء العظيم العادل بسبب اتِّباع الكافرين غواية الشيطان ومعصية الرحمن، وبسبب اتِّباع المؤمنين هداية القرآن وطاعة الرحمن. مثلَ هذا البيان يُبَيِّنُ اللهُ أحوالَ أهلِ الكفر وأهل الإيمان.

٤ ـ ٦ ـ يُحَرِّض الله تعالى المؤمنين على ضرب العدوِّ من الكفَّار في ميدان المعركة وكسر شوكته، فإذا لقيتموهم فواجهوهم بأروع فنون القتال، واضْرِبُوا الرِّقاب والرؤوس وكلَّ طَرَفٍ منهم. حتى إذا أضعفتموهم بكثرة القتل فأحْكِموا قيد الأسارى، ثمَّ بعد ذلك لكم الخيار في التعامل معهم، فإمَّا أن

تَـمُنُّوا عليهم بعد انتهاء المعركة بفكِّ أسرهم، وإطلاقهم بغير عوض، وإمَّا أن تأخذوا منهم فِدْيَةً بالمال أو تقوموا بتبادل الأسرى. وليكن هذا شأنَكم حتى تنتهي الحرب، ذلك هو الأمر الحاسم والحكم الجازم. ولو يشاء الله لانتصر للمؤمنين من الكافرين بغير قتال، ولكن ليختبرَكم، فشرع الجهاد لنصرة دينه، والذين قُتِلُوا في سبيل إعلاء كلمة الله فلن يُبْطل أعمالهم، سيُوَفِّقُهم إلى طريق الجنَّة، ويُصْلِحُ حالهم في الآخرة بالتجاوز عن سيئاتهم، ويُدخلهم الجنَّة من أبوابها الثمانية، وقد عَرَّفهم منازلَهم فيها ودرجاتِهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ العاقبة المحمودة تكون للحق وأهله، أما الباطل ـ مهما انتفش ـ فمصيره إلى الزوال.

٢ ـ الإيمان هو الأساس والمنطلق لأي عمل صالح.

٣ ـ سُنَّةُ الله تعالى في الابتلاء؛ ليميز المؤمن من الكافر.

٤ ـ الصراع والتدافع بين الحق والباطل سُنَّةٌ ربانية.

٥ ـ ليس الغرض من القتال في الإسلام إبادة الكفار واستئصالهم، وإنما كسر شوكتهم، ودفع شرِّهم وإضعافهم.

٦ ـ الأخذ بأسباب النصر، والتمكين من العمل والجهاد.

٧ ـ حِرْصُ الإسلام على حقن الدماء، والخروج من المعارك بأدنى خسائر، فالحرب في الإسلام ليست حرب إبادة انتقامية، وإنما هي جهاد لإعلاء كلمة الله، وكسر شوكة الأعداء.

٨ ـ موقف الإسلام من الأسرى يدل على سماحته وعدله.

٩ ـ فضل الشهادة في سبيل الله، ومكانة الشهداء وكرامتهم، وتَنَعُّمُهم في الجنان.

١٠ ـ في الآية (٤) إخبار مستقبليٌّ، والبشارة لعباد الله المؤمنين بالنصر على أعداء الله، وذلك لأن الله ﷻ جعل عقوبتهم على أيدي المؤمنين، وذلك بالجهاد. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو: أنَّ الحكمة من شرع الجهاد اختبار الله المؤمنين بالكافرين، ولكي ينصر الله بهم دينه. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر،

وهو أنَّ جزاء مَنْ قُتِلَ في سبيل الله من المؤمنين فلن يُبْطل الله ثواب عمله، بل سيوفِّقه إلى طاعته ومرضاته، ويصلح شأنه في الدنيا والآخرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾

التفسير:

٧ ـ يُبَشِّرُ الله تعالى المؤمنين مؤكِّداً أنَّهم إذا نصروا دين الله تعالى بالجهاد في سبيله، واتِّباع أحكامه، فإنَّه ينصرهم على عدوِّهم، ويُثَبِّت أقدامهم في ميدان المعركة.

٨ ـ ١١ ـ والذين كَذَّبوا الله ورسوله فدَماراً وخِزْياً لهم، وأبطل ثواب أعمالهم، أفلم يسيروا في الأرض، فيَروا في طريقهم كيف كان مصير الأُمم السابقة كعاد وثمود وقوم لوط؛ ليعتبروا؟ فقد أهلكهم الله، وآثارهم باقية، وللمكذِّبين أمثالُ ذلك العقاب. ذلك الدمارُ العظيم الذي أتى عليهم لَحِقَهم؛ لأنَّ اللهَ ناصرُ المؤمنين، وأنَّ الكفَّار لا ناصرَ لهم.

١٢ ـ يُبَشِّرُ الله تعالى المؤمنين الذين يعملون بما أمر الله بالثواب في الآخرة، فإنَّه يُدْخِلُهم جنات تجري الأنهار من تحت أشجار قصورها، ويَذُمُّ الكافرين بأنَّهم يتمتَّعون بشهوات الدنيا، ويأكلون مثل البهائم؛ إذ لا هَمَّ لهم إلا بطونهم، ونار جهنَّم مأواهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في الآية (٧) إخبار مستقبليٌّ، والبشارة لعباد الله الذين صَدَّقوا به، واتَّبعوا الرسول، ونصروا دينه بالجهاد في سبيله، والحكم بكتابه، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإنَّ الله سينصرهم على أعدائهم.

٢ ـ من بدائع القرآن وقوع ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ في جانب الكفار مقابلة قوله للمؤمنين: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

٣ ـ الدعوة إلى السير في الأرض، والنظر في آثار السابقين للعِظَةِ والاعتبار.

٤ ـ في قول الله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ الإظهار في موضع الإضمار؛ لبيانِ العلَّةِ في هلاكهم وللتعميم، فيشمل كل كافر.

٥ ـ ولاية الله لعباده المؤمنين.

٦ ـ التنفير من الكفر.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾﴾

التفسير:

١٣ ـ كم من أهل قرية ـ أيُّها الرسول ـ كان أهلها أشدَّ بأساً من أهل قريتك مكة، الذين كانوا سبباً في خروجك منها دَمَّرْناهم، فلا ناصرَ لهم يمنع العذاب عنهم.

١٤ ـ هل مَنْ كان على حُجَّةٍ وبصيرة من أمر دينه، مثل مَن زَيَّنَ له الشيطان قبيحَ عمله، فرآه حسناً، واتَّبع هواه الباطل؟ والمقصود من إنكار المشابهة بين هؤلاء وهؤلاء هو تفضيل الفريق الأوَّل، وإنكار زعم المشركين

أنَّهم خير من المؤمنين. ومعنى وصف البيِّنة بأنَّها من الله: أنَّ الله أرشدهم إليها، وأثار أذهانهم، فامتثلوا وأدركوا الحق، فالحجَّة حجَّة في نفسها، وكونها من عند الله تزكية لها، وكشف للتردُّد فيها، وإتمام لدلاتها.

١٥ ـ صفة الجنَّة العجيبة الشأن التي وَعَدَ الله بها عباده المتقين: فيها أنهار جارية من ماء عذب لم يتغيَّر طعمه، وأنهار من لبن لم يتغيَّر طعمه، وأنهار من خمر طيبة لذيذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفًّى من الشوائب، ولهم فيها أصناف الثمرات، ومغفرة من ربِّهم لذنوبهم، هل مَنْ هو في هذا المقام الكريم، كمَنْ هو ماكث أبداً في نار الجحيم، وسُقوا ماءً حارًّاً مغلياً فقطَّع أمعاءهم؟

١٦ ـ ومن هؤلاء الخاسرين شِرْذِمَةٌ من المنافقين الذين يستمعون إليك أيُّها الرسول، حتى إذا خرجوا من مجلسك قالوا لِـمَنْ حضر من أهل العلم بسخرية: ماذا قال محمَّد في الماضي القريب؟ أولئك البعداء عن الحقِّ الذين طبع الله على قلوبهم، فلا يفقهون، واتَّبعوا أهواءهم في النفاق. وسياق الكلام يَدُلُّ على ذَمِّ هذا السؤال لقوله عقبه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾، فهو سؤال يُنبئ عن مَذَمَّة سائِليه.

١٧ ـ وأمَّا المؤمنون الذين اهتدَوا إلى طريق الحقِّ، فزادهم الله توفيقاً، وألهمهم رُشْدَهم.

١٨ ـ فهل ينتظر هؤلاء الكُفَّار إلا قيام الساعة التي وُعِدُوا بها أن تجيئهم فجأة؟ فقد ظهرت بعض علاماتها، فمن أين لهم الاتِّعاظ إذا جاءتهم الساعة؟

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ شَتَّان بين مَنْ كان على هدى وبصيرة من ربه، ومَنْ التبست عليه الأمور، من هنا ندرك أهمية توعية الناس وتبصيرهم؛ حتى لا يقعوا فريسة سهلة للدعاية المضللة، وتزيين الباطل.

٢ ـ تشويق القلوب، وترويح النفوس، وتقوية العزائم، بذكر نعيم الجنان وما فيها من أنهار جارية وثمرات طيبة، ومغفرة عظيمة.

٣ ـ المقارنة بين عاقبة المؤمنين، وعواقب الكفار مما يُثبت القلوب، ويُسَلِّي النفوس، ويَشْحَذُها بالزاد في مواجهتها الصعبة للمكايد والتحديات.

٤ ـ تنكير ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ مع نِسْبَتِها إلى الربِّ تعالى تعظيم وتفخيم لها.

٥ ـ من أهم أسباب الصدود عن الحق اتباع الأهواء.

٦ ـ المؤمن يزيده الله هداية ونوراً، والكافر والمنافق لا يزداد إلا بُعداً وضلالاً وتخبُّطاً.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

التفسير:

١٩ ـ فاعلم ـ أيُّها الرسول ـ أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، واستغفر لذنبك ولذنوب المؤمنين والمؤمنات. والله يعلم تَصَرُّفَكم في معايشكم، ومستقركم عند راحتكم من العمل، وفي البرزخ ودار القرار في الجنَّة أو النار.

٢٠ ـ ٢١ ـ ويقول المؤمنون حرصاً على نصرة الدين: هَلَّا نزلت سورة من الله تعالى فيها أحكام الجهاد وآدابه. فإذا نزلت سورة مُحكمة في بيانها وأحكامها، وذُكِرَ فيها الجهاد، رأيت المنافقين الذين يَعْتَرِي قلوبهم الشكُّ في الدين، ينظرون إليك ـ أيُّها الرسول ـ نَظَرَ المغمى عليه في شخوص أبصارهم، جبناً وخوفاً من الموت في ميدان القتال. فخيرٌ لهم طاعة الله ورسوله، وأن يقولوا قولاً سديداً طيِّباً يدلُّ على الإيمان، فإذا جَدَّ الأمرُ وفُرِضَ القتال، فلو صدقوا الله في الإيمان والعمل، لكان خيراً لهم من العصيان.

٢٢ ـ ٢٣ ـ فلعلَّكم ـ إن أعرضتم عن الإسلام ـ أن تَرْجِعُوا إلى أفعال الجاهلية في سفك الدم الحرام، وتقطيع الأرحام. أولئك البعداء عن الحقِّ

طردهم اللهُ من رحمته، فأصَمَّهم عن سماع الحق، وأعمى أبصارهم عن طريق الهدى.

٢٤ ـ يُوَبِّخ الله تعالى المنافقين وكلَّ مُعْرِضٍ عن القرآن: أفلا يفهمون القرآن؛ ليُدْرِكُوا أحكامه ومواعظه؟ بل قلوبهم قاسية طُبِعَ عليها، فلا تتأثَّر بالقرآن.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ العلم قبل العمل، فطن الإمام البخاري بمَلَكته الفقهية في تبويب «الصحيح»، فعقد باباً في كِتاب العِلْم بعنوان «بَاب: الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾».

٢ ـ قال ابن عاشور في الآية (٢٠): «هذه الآية إنباء عمَّا سيكون من المنافقين حين يَجِدُّ الجِدُّ، ويجيء أوان القتال، وهي من معجزات القرآن في الإخبار بالغيب، فقد عزم أمر القتال يوم أُحُد، وخرج المنافقون مع جيش المسلمين في صورة المجاهدين، فلمَّا بلغ الجيش إلى الشوط بين المدينة وأُحُد، قال عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين: ما ندري عَلامَ نقتلُ أنفسنا هاهنا أيُّها النَّاس؟ ورَجَعَ هو وأتباعه، وكانوا ثلث الجيش، وذلك سنة ثلاث من الهجرة، أي: بعد نزول هذه الآية بنحو ثلاث سنين». (التحرير والتنوير: ٢٦/ ٩٣).

٣ ـ الإعراض عن الحق، وإطلاق العنان للأهواء، من أسباب الفساد والقطيعة.

٤ ـ الفساد في الأرض، وقطيعة الأرحام من شعار أهل الكفر.

٥ ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات؛ إيذاناً بأنَّ ذِكْرَ هَناتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب. (تفسير أبي السعود: ٨/ ٩٩).

٦ ـ تنكير القلوب: إمَّا لتهويل حالها وتفظيع شأنها بإبهام أمرها في القساوة والجهالة، كأنه قيل: على قلوب منكرة لا يُعْرَفُ حالها، ولا يقادَرُ قَدْرُها في القساوة، وإما لأنَّ المراد بها قلوب بعضٍ منهم، وهم المنافقون. (انظر: تفسير أبي السعود ٨/ ٩٩).

٧ ـ قال النسفي: «وأُضيفت الأقفال إلى القلوب؛ لأنَّ المراد الأقفال

المختصة بها، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح». (مدارك التنزيل للنسفي: ٤ / ١٤٩).

٨ ـ وجوب تَدَبُّر القرآن الكريم، ومن صوارف التدبُّر وعوائقه قسوة القلوب، وإغلاقها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ
لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ
ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم
بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ
مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾

التفسير:

٢٥ ـ ٢٨ ـ يَذُمُّ الله تعالى المرتدين عن الإسلام، الراجعين على أعقابهم كفَّاراً بالله، من بعد ما عَرَفوا طريق الهداية، إن الشيطان قد زَيَّن لهم الغَواية، وغرَّهم بالأماني الخادعة. ذلك الأمر الخطير والشرُّ المستطير، بسبب قولهم لليهود والكفَّار الذين كرهوا ما نَزَّل الله تعالى على نبيِّه ﷺ من الوحي: سنطيعكم في بعض أموركم، كالقعود عن الجهاد جهادكم. والله تعالى يعلم مكايدهم الخفية، فكيف تكون حالُهم إذا قبضت الملائكة أرواحهم، وهم يضربون وجوههم وظهورهم بمقامعَ من حديد؟ ذلك العذاب الرهيب بسبب اتِّباعهم ما يُغْضِبَ اللهَ من الكفر والنفاق، وكُرْهِهم العملَ الصالح الذي يرضاه، فأبطل أعمالهم.

٢٩ ـ أم ظنَّ المنافقون أنَّ الله تعالى لن يكشف ما في قلوبهم من القبائح كالحقد والحسد؟

٣٠ ـ ولو نشاء ـ أيُّها الرسول ـ لَأَرَيْناك المنافقين، فعرفتهم بعلامات خاصَّة بهم. وقسماً لَتَعْرِفَنَّهم من فحوى كلامهم، وحركة ألسنتهم. والله تعالى يعلم كل أعمالكم ـ أيُّها العباد ـ من خير أو شرٍّ.

٣١ ـ قسماً سنختبر المؤمنين بالجهاد؛ حتى يظهر المجاهدون في سبيل الله منكم والصابرون، ونختبر أقوالكم وأفعالكم؛ حتى تميِّزوا الصادق من الكاذب.

٣٢ ـ إنَّ الكفَّار الذين منعوا الناس عن الإسلام، وعادَوا الرسول ﷺ من بعد ما عرفوا أنَّه نبيٌّ صادق من عند الله تعالى، لن يَضُرُّوا الله بهذه القبائح، وسيبطل أعمالهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ أدب القرآن الرفيع وبلاغته في التعبير، إذ أرسى أصول الآداب، ومكارم الأخلاق، وأسَّس الكلمة الطيبة. عن إسماعيل بن كثير قال: قال لي مجاهد: تدري ما قولُ الله ﷻ: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾؟ قلت: ما هو؟ قال: وأستاهَهم، ولكن الله ﷻ كريم يَكْني. (التفسير من سنن سعيد بن منصور: ١/ ١٥٢).

٢ ـ بيان منهج القرآن في توطين النفوس، وتهيئتها لمواجهة البلاء، واستقباله بنفس راضية مطمئنة، وقلب ثابت راسخ.

٣ ـ قال إبراهيم بن الأشعث: «كان الفضل إذا قرأ هذه الآية ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بكى، وقال: اللَّهم لا تَبْلُنا، فإنَّك إن بَلَوْتَنا فَضَحْتَنا، وهَتَكْتَ أستارنا وعَذَّبْتَنا». (الكشف والبيان للثعلبي: ٩ / ٣٨).

٤ ـ الحَثُّ على إعلاء كلمة الحق، ورفعة الأُمة.

٥ ـ بيان أسباب الارتداد، وأنَّها ليست خَلَلاً في منهج الإسلام أو قصوراً فيه، وإنما هي ثمرة الاستجابة لتسويل الشيطان وإملائه.

٦ ـ التحالف والتواطؤ بين المنافقين والمرتدين، وبيان الكارهين لما أنزل الله من اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم.

٧ ـ سُنَّة الله في كشف أصحاب القلوب المريضة، وفَضْحِهم.

٨ ـ حرف الاستقبال في الآية (٣٢)؛ لتحقيق حصول الإحباط في المستقبل، وهو يدلُّ على أنَّ الله محبط أعمالهم من الآن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

التفسير:

٣٣ ـ يأمر الله تعالى المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ فيما بَلَّغهم من الشريعة في القرآن الكريم والسنَّة الشريفة، ونهاهم عن إبطال أعمالهم الصالحة بالكفر.

٣٤ ـ إنَّ الكفَّار الذين منعوا الناس عن الإسلام، ثمَّ ماتوا على ذلك، فلن يغفر الله لهم جرائمهم.

٣٥ ـ فلا تَهِنُوا ـ أيُّها المؤمنون ـ عن جهاد أعدائكم، وتَجْبُنوا عن قتالهم، فتدعوهم إلى الصلح، وأنتم الغالبون عليهم، والله معكم بنصره، ولن ينقصكم من ثواب أعمالكم مثقال ذرَّة.

٣٦ ـ ٣٧ ـ يُزَهِّد الله تعالى عباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنَّها لَعِبٌ في الأبدان، ولهو في القلوب. وإن تُصَدِّقوا بالله، وتَتَّقوه بامتثال أوامره واجتناب معاصيه، يُعْطِكم ثواب أعمالكم، ولا يأمركم بإخراج أموالكم جميعها في الزكاة، بل يأمركم بإخراج بعضها، إن يسألكم أموالكم

فيَجْهَدْكم ويُلِحَّ عليكم، تبخلوا بها، وتمتنعوا عن أدائها، ويُخرج ما في قلوبكم من البخل وكراهة الإنفاق.

٣٨ ـ ها أنتم ـ معشر المؤمنين ـ تُدْعَوْن لتُنْفِقُوا في نصرة الدين، فمنكم مَنْ يبخل بالنفقة، ومَنْ يبخل فإنَّما يعودُ وَبالُ بُخْلِه على نفسه بفوات الثواب. والله هو الغنيُّ عنكم وأنتم الفقراء إليه، وإن تُعْرِضُوا عن طاعته يجعل بَدَلَكم قوماً آخرين، ثمَّ لا يكونوا أمثالكم في الإعراض عن أحكامه.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ الإسلام لا يرضى لأتباعه بالمذلة والهوان، والهزيمة النفسية، والاستسلام للأعداء.

٢ ـ الإسلام دين السلام العادل، سلام العزة والكرامة، وليس السلام الزائفَ، سلامَ الضعف والإجحاف.

٣ ـ الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله، فهو من وسائل الجهاد، وقد تَرَتَّب على ترك الإنفاق أو التقصير فيه هزائم، ونكبات حَلَّت بالأُمة.

٤ ـ الإسلام دين وسطي، يراعي التوازن في الحقوق والواجبات، والتكليف بما يطاقُ.

٥ ـ من سُننه تعالى سُنَّةُ الاستبدال؛ ليمضيَ رَكْبُ الدعوة.

٦ ـ في الآية (٣٥) إخبار مستقبليٌّ، وبشارة عظيمة لعباد الله المؤمنين به وبرسوله بالنصر والظفر على الأعداء، فيما إذا لم يضعفوا عن جهاد المشركين، وتجنَّبوا قتالهم.

٧ ـ في الآية (٣٨) إخبار مستقبليٌّ عن عاقبة المؤمنين فيما إذا تَوَلَّوا عن الإيمان بالله وامتثال أمره، فإنَّ الله سيهلكهم، ويأتي بقوم آخرين، ولا يكونوا أمثالهم في التَّوَلِّي عن أمر الله، بل يطيعونه، ويطيعون رسوله، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم.